يجد من اللص غفلة ليتمكن منه ، فإذا بادعائه النوم قد صار نوماً ؛ فيغط فى النوم حتى يأخذ اللص كل ما يريد من البيت ويتركه ، وصاحبه قد ادعى النوم حتى نام .

وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له قطعة من الذهب ويدعى أنه وجد كنزا كى يخدع ذلك الإنسان ، ويسلبه ماله، فيدّعى ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع ، ويأخذ القطعة كى يسأل عن قيمتها ثم لا يعود .

وهو أيضاً شبيه بصاحب الورق المقامر على الورق المقلوب من ورق اللعب ، يدعى الخسارة ويعطى اللاعب جنيها كى يستدرجه ويسلبه ماله فيدعى اللاعب أنه ساذج ، ويظهر رغبته فى استئناف اللعب ، والقمار ، ويستأذن فى قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم ثم يذهب بالجنيه ولا يعود .

وهـذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس فى أعمال الناس الجليلة الكبيرة المشروعة المحترمة . فالحذر عند ادعاء الانخداع ضرورة . أما أن يفتخر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالانخداع لهم فهو دهاء ، ووسيلة كسب بالمكر . أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة ، ولا شىء يدعو إلى الفشل فى الحياة كاعتقاد الناس فى إنسان أنه لا ينخدع ، ولا يدعى الانخداع ؛ وهـذا الاعتقاد يؤدى إلى بغض الناس من يعتقدونه فيه حتى وإن كان اعتقادهم باطلاً لا أساس له ، وهذا التظاهر بالانخداع هو ما جعله أبو تمام من أسباب السيادة وسماه بالتغابى فى قوله :

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قومه
لكنَّ سيد قومه المتغابى

وتبعه البحترى فقال :

وقد يتغابى المرء فى عُظْمِ مَالِهِ
ومِنْ تحت بُرْدَيْهِ المُغيرَةُ أو عمرو

عبد الرحمن شكرى

صـــلوات فكر
فى محاريب الطبيعة
للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا أرض الرستمية !

عليك السلام من عينى اللتين تدوران فيك دورات زائغة زئبقية مروعة وتلقطان الصور من حياتك ومواتك وآفاقك وذراتك . . .

ومن قلبى الذى قدستِ أسراره وقدس أسرارك وخلدتِه وخلدك . . .

ومن فكرى الذى صقلتِه وأرهفتِه وجعلتِه يتصل بأصول الحياة ويرتبط بوثيق الأسباب . . .

لقد توسعت نفسى من رحبك وتعددت بتعدد مرائيك ، ورقرق خواطرى نهرك الوديع اللعوب ، فى ابتسام الفجر وبكاء الغروب ، وأحسست سلامة النبات وهدوءه وصبره وصمته ونموه وإشراقه يدب فى جسدى . . .

لقد اختلطت فيك الرؤى بالأحلام ، والصحو بالذهول والمنام ، فتوسع عالمى ورأيت فى دنياى وفى نفسى مخابئ وعجائب ومدخرات ومكنونات . . .

لقد خلدت فى خيالى صور الأعواد الجافة والخضراء والربى والوهاد والزهر والمطر حتى لأوشك أن أعد كل أولئك واحداً واحداً من ترديد النظر وانطباع الصور . . .

وهل أنسى كئوس النور والظلام التى أدرتها على عينى مخضبات بأصباغ الشفقين ، مشعشعات بالندى والطل ، مطيبات بنفح الزهر وأنفاس السحر ؟

لقد شربت عيناى فيك من النور والظلام فسكرت سكراً أبدياً أفرغ فى كل خلية من خلاياى نشوة وفتوناً

لقد دخلتك كارهاً فراق بغداد . . . فكنت كالذين يقادون إلى الجنة بالسلاسل !

ثم انطلقت فى رحابك انطلاق رياحك وأطيارك ، أحمل قلبى

إلى كل مكان كما تحمل الطير قلوبها على الأغصان ، أقف على كل شيء حياة ونبض لآخذ لقلبي منه قوة وطاقة يستعيض بهما عما يبذله ويسرف في بذله

فإني حين رأيت عيني عاجزة أن ترى « سر الوجود » جعلت أرى بنفسي في مواضع يده . وكأنه عند ما بدت مني لهفتي الدائمة إليه أوسع لي من عطفه فأخذني إلى قطعة فاتنة من الطبيعة المكشوفة التي لا حجاب بينها وبين حواسي الداخلية والخارجية ، لأرى يده دائماً من وراء ستر شفاف فقادني إلى الرستمية

وقد عشت مختنق الحواس في المدن ، لا أرى إلا حجارة ميتة موضوعة بهندسة الإنسان ، ولا أرى من الطبيعة إلا قطعة من السماء في سمت شارع أو من نافذة دار . وهيهات كان تيقظي إليها . . .

وكنت لا أتذكر الطبيعة إلا برؤية شجرات في الشوارع تكاد تتكر وجودها في هذه الأماكن الصناعية ، وتكاد عيني تحسبها صنعة إنسانية كالأثاث في وجهات الحوانيت . وكنت أزور الطبيعة المكشوفة التي في خارج أرباض المدن كما يزور السائح الأمريكي متحفاً للآثار في الشرق . . .

وحقاً استحالت الطبيعة البكر المكشوفة كمتاحف للآثار التي كان يستعملها أجدادنا وصارت لانقطاعنا عنها غريبة علينا . وصرنا لا نرى مشاهدها إلا من خلال عدسة التصوير أو من ريشة فنان أو ألفاظ قصيدة . . .

ثم قصر الناس صلاتهم على الأنصاب والهياكل والأماكن المظلمة الضيقة التي لا يرون فيها إلا أجسادهم ، وتركوا المحاريب التي بناها رب الحياة بيده هو لعبادته بالفكر والقلب . . .

تركوا المعبد المفروش بالأعشاب والرمال ، المسقوف بالمصابيح الزهراء ، القائم على جدران من سامقات الجبال وأعمدة من بواسق النخيل وفارعات السرو ، المغسول بشعاع الشمس والقمر ؛ وكأنهم بنوا معابدهم لتحمي أجسادهم من فيضه وفيض طبيعته ، وتركوا قلوبهم تختنق فيها بالبخور والعطور والأصوات القردية التقليدية

أما أنا . . . فورب الحياة لأعبدنه في الطبيعة تحت الهواطل والصواعق ، في حرارة الهواجر وبرودة الأسحار ، في وضوح النهار وأنهام الليل ، في جمرات الظهيرة وفحمات العتمة ، ولو طارت بي الريح . . . ولو وقع على سقف الدنيا !

ولأنادين على اسمه : الصلاة جامعة أيتها الأحياء . . . إلى الإحساس بالحياة ورب الحياة ... قومي مصطفة في أماكنك المحدودة الموزونة . . .

فيسجد كل كائن في مكانه ويسجد قلبي معه . . .

وسأعود إلى أحضان الطبيعة أغني في أذنها كطفل يغني في أذن أمه ويدفعه قلبه العاشق الراهب إلى التمسح فيها والاحتماء بها . . .

وسأحمل قلبي إلى كل مكان فيها كما تحمل الطير قلوبها إلى كل شجرة . . .

وسأسجل خواطري عنها في كل ساعة تتعرض لي فيها بفتنة من فتونها ، وأرصدها وهي يقظة أو نائمة ، خفيرة محتشمة أو عاهرة متبرجة ، ضاحكة أو باكية ، حبلى مكدودة تعاني آلام الحمل والطلق والوضع أو فارغة خفيفة . . .

لقد احتكرتني لنفسها ولم تدع في قلبي مكاناً لحب غيرها إلا أن يكون مَرَدُّه إليها وجماله من جمالها

فيا ابن الإنسان ! هلم معي إليها . لقد كنت تتخذ الحجارة وكثيراً من الأشياء التافهة آلهة من شدة شعورك بها فتسجد لها . أفلا تصلي معها الآن لربها الذي اهتديت إليه ؟

هي لا تزال شاعرة بربها كما كانت وكما تكون . وذهب شعرك أنت بها وبربها . وصرت تسجد لنفسك . فمن يعبدك معك ؟ لا شيء . . . إن الحجارة تأبى أن تعبدك كما عبدتها أنت في ضلالك القديم !

١ — قبيل الربيع

الطبيعة تلد من كل جسمها ... جاء ابتداء دورة زمنية ... الأجنة تتحرك للانفصال من العالم الغائب ... الأنواع من نباتها وحيوانها تزدحم لتسير في الموكب ... يستعرضها صاحب الوقت القائم على الزمان .

أنا لا أشترك في الموكب لأني عقيم لم أقدم قرباناً ما للحياة بإلقاء بعض الأحطاب إلى شعلتها ؛ ولذلك جعلتني من الواقفين على هامش طريقها يهتفون لها بالقصائد اللفظية .

لعلها غاضبة علىّ ، لأنى عاق لها بالعمل ، وإن كنت باراً بها فى الشعر . أما أبناؤها البررة فقصائدهم : شجرة أو ثمرة أو ورقة أو زهرة أو فرخ بيضة ، أو كتلة لحم تصرخ فى أذنها وتتكلم ! يقدمون ذلك لها فى كل عرس من أعراسها كبرهان ولاء وطاعة وشعر حقيق ...

قد يخاف الفيلسوف من موت الثمرات أو مرضها أو فسادها ... ولكن الطبيعة تود الثمرات ولو كانت معطوبة . تود حياة الأمل والألم لا حياة العقل الجامد . تود أن تسمع عويل الثكل وصوت النبى ، كما تود أن تسمع صوت البشير وضجيج الميلاد .

تريد دائماً أمًّا تصرخ فى أذنها إما من الطلق والوضع ، وإما من الفقد والثكل . تريد جنيناً محمولاً فى ظلمات البطن ، ورضيعاً ملفوفاً فى لفائف القماط ، أو محمولاً فى بطن النعش ملفوفاً بلفائف الكفن ...

قانونها هذا : أرحام تدفع ، وأرض تبلع ! ! لأنها لا تدور على فراغ ، ولا تسمح ببقاء دائم .

٢ — الربيع

أنظر بعينيك فى كل مكان فى السماء والأرض ، واحذر أن يشرد منك ولا يرتد إليك ...

أدرها على كل طفل من أطفال الطبيعة ... واحذر الخائلات الناعسات من عيون الأزهار .

العشب والزهر كأطفال خرجوا فى صباح عيد ... والصبح كمشوق القوام ، واضح الجبين ، والليل فاتن الملامح...

إخلع نعليك وسر حافياً على جسم أمك ، وتمسح فيها حتى يجددك منى الحياة الجديدة .

لاعب إخوتك الصغار الذين تفتحت عنهم الأكمام ، وقذفتهم الأرحام ، ونسجتهم ظلمات الأرض ، ولونتهم أضواء السماء ، وخذ لشفتيك قبلات من المواليد الجديدة .

إفتح حواسك جميعاً ليدخل شباب الدنيا إلى نفسك ، واختزن فى قلبك قوت سنة من الحياة والجمال .

إملأ عينيك بالأضواء والأصباغ ، وأذنيك بالأغاريد والموسيقى السائلة الذائبة فى الأجواء والأنهار .

ضاعف إحساسك بالحياة وتيقظ ، واخلق لنفسك أعصاباً جديدة ثم امنع فكرك عن الدوران فى الأرقام والحروف والعفونات القديمة ... وألق كل قديم من قلبك وتجدد ... وافتح فؤادك الجائع الذى لا يمتلئ ، فإن كل هذا الجمال والحياة له ...

أنظر إلى الربى والوهاد والتلاع والسهول والأغوار ، تجد الزينة والأعلام فى كل مكان ... ما تركت السحب مكاناً بدون أن تفرشه بالسندس والأقحوان ، وما تركت النسمات مكاناً بدون أن تمر عليه منبهة ما فيه إلى وجوب الطاعة لحركة الحياة بالتمايل والخفيف والتصفيق ... حتى شجرات العوسج والشوك أورقت وأزهرت !

ضع وجهك وجسمك بين الأعشاب والأزهار ... واستقبل الأندياء والأشعة ، واهدب بأجفانك كالنرجس ... ودر بعينيك مع الشمس « كعبّادها » ، ودع النحل والفراش تقبل فاك وعينيك ... وارسل نفسك نديًّا خافتاً بسيطاً بدون تعقيد ليحمله النسيم مع العطور ... ثم لا تفكر ! حتى لا تحترق أوراق الورد ، وتختنق أنفاس النسيم .

وانظر إلى الطفلات من البهائم ، وإلى أطفالها بحنان ، وهى ترعى سعيدة تخضم نبتة الربيع ثم تخور وتجتر حالة ...

فإذا جاء الليل فاخرج إلى الحدائق المعلقة فى السماء ، وانظر فيها حالماً ساهماً تحت ضوء القمر الباهت ، ودر بعينيك فى نفسك وفى أغوار الأزل والأبد . فلعلك أن ترى هناك الربيع الدائم ...

نعم . فليس قلبك قانعاً بهذه اللحظات الفانية من ربيع الأرض ... إن قلبك ليس ورقة من ورقات الأشجار تخرج ناظرة ساهمة بلهاء ، ثم تفارق الكون مكرهة إلى غير رجعة . بل هو عقدة ثمرة خالدة فى الربيع الخالد الذى لا يحرقه صيف ولا يحوله خريف إلى هشيم تذروه الرياح وتلوى به الصبا والدبور إلى الدثور .

ولئن عز عليك أن تفنى بين يديك وأمام عينيك أرواح الأزهار الأرضية ، وتتساقط أجسادها جثثاً بالية ناصلة الألوان مسلوبة العطر ... فانظر إلى حدائق السماء ذات الزهور الخالدة التى تصل إليك ألوانها وعطورها من بعد . وتعزّ بهذا البقاء عن ذاك الفناء . وكن على يقين بأن قلبك مخلوق دائم لهذا الربيع الدائم الذى تراه فوق فى الحدائق المعلقة ...

« بغداد — الرستمية »

عبد المنعم خلوف